الدرس الثاني عشر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله صلى الله وسلّم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين ..

أما بعد..

يقول الحافظ المنذري - رحمه الله - في كتابه كفاية المتعبّد وتحفة المتزهد..

[الباب الثالث : في فضل الصدقة]

١-[روى أبو هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان فيقول أحدهما اللهم أعط منفقا خلفا ويقول الآخر اللهم أعط ممسكاً تلفا " متفق عليه]

الشرح..

هذا الباب الثالث من أبواب كتاب فضائل الأعمال المسمّى بكفاية المتعبد وتحفة المتزهد وهذا الباب معقود في فضائل الصدقة والصدقة هي ما يخرجه المرء من ماله على وجه التقرب إلى الله وطلب ثوابه وهي من أعظم الأعمال وأجلّها وفي الصدقة ثواب عظيم يناله المتصدقون في دنياهم وأخراهم ،

في دنياهم بركة في حياتهم وأموالهم وفي أخراهم ما أعده الله لهم من عظيم الثواب وجميل المآب ، والصدقة سميت صدقة من الصدق لأنها تدل على صدق إيمان صاحبها كما يوضح هذا المعنى قول النبي صلى الله عليه وسلم " والصدقة برهان " أي برهان على إيمان المرء وصدقه في إيمانه والصدقة شأنها عظيم فيما يترتب عليها من خيرات وبركات وحسن عوائد في الدنيا والآخرة ، والمصنف رحمه الله جمع في هذا الباب جملة من النصوص في فضل الصدقة وعظيم ثوابها عند الله ، وبدأها بحديث أبي هريرة رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان فيقول أحدهما اللهم أعط منفقا خلفا ويقول الآخر اللهم أعط ممسكاً تلفا "

والحديث فيه حث على الصدقة في كل يوم ، حثاً يومياً على الصدقة بمعنى أن المرء يكون له نصيب من الصدقة في كل يوم من أيامه لان نزول الملكين نزولاً يومياً ودعوة الملكين دعوة يومية بأن يعطي الله سبحانه وتعالى المنفق خلفا والممسك تلفا فالحديث فيه حث على الصدقة بشكل يومي ،

والمراد بالنفقة في قوله " اللهم أعط منفقاً خلفا " أي النفقة على الطاعات وعلى الأولاد والنفقة على الضيوف والنفقة على المحتاجين والفقراء فإن ما ينفقه المرء على أولاده وأهله من طعام وشراب وكسوة اذا احتسبها عند الله فإنها تدخل في النفقة وكذلك ما ينفقه في حاجة الفقراء والمساكين والانفاق والاحسان على الجار كله يشمله النفقة التي جاء الحث عليها والترغيب فيها في الحديث

قال " فيقول أحدهما اللهم أعط منفقاً خلفا "

أي من ينفق من ماله فأخلفه بخير وحسن عوض ولهذا يجد المنفق بركة النفقة في ماله ظاهرة " وما نقصت صدقة من مال "كما جاء في الحديث ،

قال " ويقول الآخر اللهم أعط ممسكاً تلفا "

أي تلفاً في ماله ، والتلف الذي يكون في المال نوعان : حسي ومعنوي أما الحسي بأن يصاب ماله بجائحة بأن يضيع أو يحرق أو يسرق أو يعتدى عليه أو نحو ذلك ، والتلف المعنوي وهو أن يكون المال موجود عنده لكن يكون عديم البركة لا يستفيد منه فهو مال غير مبارك ،

فالتلف يشمل نزع البركة في المال ويشمل ضياع المال بأي صفة من صفات الضياع ، وهذه الدعوة التي في هذا الحديث " اللهم أعط ممسكاً تلفا " تفيد أن المراد بالنفقة في هذا الحديث النفقة الواجبة ،

لان النفقة نوعان : نفقة واجبة ونفقة مستحبة ، والدعاء بتلف المال لا يكون إلا في حق من فرط في ما أوجب الله عليه أما النفقة المستحبة إن حصلت من صاحبها أثيب وإن لم تحصل من صاحبها لم يعاقب ولم يستحق الدعاء عليه بتلف ماله

فالظاهر والله أعلم أن المراد بالنفقة هنا النفقة الواجبة مثل النفقة على الأهل والولد والنفقة التي هي إخراج الزكاة الواجبة ونحو ذلك من النفقات الواجبة فإن من يمسك عما أوجب الله عليه فإنه حقيق بهذه الدعوة اليومية من الملكين بتلف ماله

٢-[وروى أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال " لا يتصدق أحدكم بتمرة من كسب طيّب إلا أخذها الله تعالى بيمينه فيربيها كما يربي أحدكم فلوّه أو قلوصه حتى تكون مثل الجبل أو أعظم " متفق عليه ،

الفلوّ : المهر والقلاص ، فتيان الإبل : واحدها قلوص]

الشرح..

ثم أورد رحمه الله هذا الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال " لا يتصدق أحدكم بتمرة من كسب طيّب " وفي بعض الأحاديث زيادة " ولا يقبل الله إلا الطيب "

وجاء في بعض الأحاديث " لا يتصدق أحدكم بعدل تمرة " فيفيد الحديث بروايتيه أن من تصدق بتمرة أو تصدق بما يعادل التمرة من طعام أو شراب أو مال أو نحو ذلك فلا يكون خاصاً بالتمر وإنما من تصدق بتمرة أو تصدق بما يعادل تمرة ، والمراد أنه تصدق بشيء قليل فإن الله يضاعفه لصاحبه ويربّيه له ، حتى تكون هذه التمرة الواحدة أو ما يعادل التمرة يجده صاحبه يوم القيامة مثل الجبل لأن الله يربيها وينميها لصاحبها حتى تكون التمرة الواحدة مثل الجبل

وهذا فيه أن ثواب الصدقة مضاعف وأن في الصدقة بركة وأنها تنمو لصاحبها ويجدها يوم القيامة أضعاف مضاعفة اذا كانت التمرة الواحدة أو ما يعادلها يجدها المرء يوم القيامة مثل الجبل فكيف بمن يكرمه الله بأنواع من الصدقات محتسباً طامعاً في أجر الله وعظيم ثوابه.

قال [لا يتصدق أحدكم بتمرة من كسب طيب]

بهذا القيد وهذا فيه أن النفقة التي من كسب ليس بطيب ليست مقبولة لان الله قال بعده " ولا يقبل الله إلا الطيب " فبهذا القيد أن تكون النفقة من كسب طيّب يعني دخلت علية هذه التمرة أو غيرها من المال من طريق حلال ومباح أما لو دخلت عليه من غش أو ربا أو غيرها من الطرق المحرمة فإنها غير طيبة فلا تكون متقبلة لان الله لا يقبل إلا الطيّب ،

قال [من كسب طيّب إلا أخذها الله تعالى بيمينه]

وهذا فيه إثبات اليمين لله تعالى كما في القران الكريم ﴿ وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾

قال " إلا أخذها الله بيمينه " والقاعدة عند أهل السنة أن هذه النصوص ؛ نصوص الصفات تمر كما جاءت ويؤمن بها كما وردت وأن يحذر المرء من طرائق أهل التأويل وسبل أهل التحريف الذين يجهدون أنفسهم في ليّ هذه النصوص وصرفها عن ظاهرها وإبعاداً عن معناها زعماً منهم أنهم يريدون تنزيه الله تبارك وتعالى ، والنبي صلى الله عليه وسلم القائل لهذا الحديث هو إمام المنزهين لله عز وجل ،

ويكفي المسلم أن يسمع أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم وأن يؤمن به كما جاء ويمرّه كما ورد لا أن ينشغل بصرف الحديث إلى المعاني البعيدة زعماً منه أنّه يريد تنزيه الله ،

نحن نقول كما قال صلى الله عليه وسلم " إلا أخذها بيمينه " وهذا فيه عظم الصدقة وبركتها وفائدتها لصاحبها

ويجب أيضاً في هذا المقام أن ينزّه الله عن التمثيل ، قال الله تعالى ﴿ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ﴾ وقال تعالى ﴿ هل تعلم له سميّا ﴾ وقوله ﴿ ولم يكن له كفوا أحد ﴾

ولا يجوز أن يخطر ببال أحد أنها مثل صفات المخلوق وإنما صفات الله المضافة إليه تليق بجلاله وعظمته ، والقاعدة عند أهل العلم في هذا الباب " أن الاضافة تقتضي التخصيص " فما يضاف إلى الله من الصفات يخصّه ويليق بكماله وجلاله وما يضاف الى المخلوقات من الصفات يليق بضعفهم وعجزهم ونقصهم ، وتنزّه ربنا تبارك وتعالى عن الشبيه والمثال ﴿ فلا تضربوا لله الأمثال ﴾ .

قال[إلا أخذها الله تعالى بيمينه فيربّيها كما يربّي أحدكم فلوَه ، قال المؤلف " الفلوّ المهر "]

الفلوّ سمي فلواً من فليِه عن أمه أي فصله عنها ولهذا يقال له الفلوّ ويقال له الفصيل يعني لما يبلغ سن الفطام عن أمه وأن يفصل عن أمه ،

والمراد بالفلوّ : الصغار من الخيل يقال له فلو وأهل الخيل لهذا الفلوّ شأن عظيم عندهم جداً ولهذا خصّه النبي صلى الله عليه وسلم بالذكر ، له شأن عظيم ومكانة في نفوسهم ويعتنون به عناية عظيمة ، لأنهم يعدّونه لأشياء عظيمة ؛ يعدّونه للدفاع ومجابهة الأعداء فعنايتهم به أشد من عنايتهم ببهيمة الأنعام أو غيرها مما يربّى عندهم وإنما يربى تربية خاصة ويعتنى به عناية خاصة

قال [فيربيها كما يربي أحدكم فلوه أو قلوصه ، قال المؤلّف" القلاص فتيان الابل"]

يعني الصغار من الابل فيربّيها له كما يربي أحدكم الصغار من الإبل أو الصغار من الإبل وكل هذه لها شأن عند أصحابها

قال [حتى تكون مثل الجبل أو أعظم]

حتى تكون أي التمرة أو ما يعادلها ، مثل الجبل ؛ أي يربيها الله له حتى يجدها صاحبها يوم القيامة مثل الجبل

فالحاصل أن هذا الحديث العظيم المبارك يدل على فضل الصدقة ولو كان الذي تصدقت به قليلاً " ولا تحقرن من المعروف شيئاً " لا تحقرن ريالاً أو درهما أو خبزةً أو علبة حليب أو تمراً أو أي شيء من المعروف فاذا أخرجها الانسان بنفس طيبة وكسب طيّب يبتغي بها وجه الله ربّاها الله له هذه التربية المشارة بالحديث حتى يجدها صاحبها مثل الجبل أو أعظم كما قال نبيّنا صلوات الله وسلامه عليه

" فَلُوّه " تضبط بفتح الفاء وضم اللام وتشديد الواو ، وأيضاً تضبط فِلوه بكسر الفاء وإسكان اللام .

٣- [وروى حارثة بن وهب رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " تصدَقوا ، فيوشك الرجل يمشي بصدقته فيقول الذي أعطيها ، لو جئت بها بالأمس قبلتها وأما الآن فلا حاجة لي بها ، فلا يجد من يقبلها " متفق عليه]

الشرح..

أورد رحمه الله هذا الحديث في الحث على الصدقة واغتنام أوقات إمكانها قبل تعذُّرها وهذا نوع من أنواع الحث على الصدقة ، حث على الصدقة لاغتنام أوقات امكان الصدقة وكم من إنسان أخّر فرصاً عظيمة لم يغتنمها للصدقة ففاتت عليه ،

أحد الأفاضل حدثنا بقصة عظيمة في هذا الباب أن أحد الأثرياء كلَمه شخص فاضل في بناء مسجد جامع كبير يكلف ثلاثة ملايين فوافق على ذلك وقال أعدُوا المخططات وهيّؤوها وأنا متكفل بإخراج هذا المال لهذا المسجد لكن لم يباشر دفعه ولم يكتب بالمبلغ وإنما تكفل بذلك واستعد ثم مرض على إثر ذلك ومات ثم قال الفاضل لورثته : الوالد اعتمد هذا المسجد وورَثكم خيراً كبيرا واعتمد هذا المسجد وقال لي أنا متكفل ببنائه وأمرني أن أعد المخططات وهي جاهزة فتشاور الورثة فما أعطوه شيئاً إلا واحداً منهم أعطاه ألفين ريال وقال هذه مني أنا ،

فاغتنام الصدقة في فرصة تهيؤها للعبد هذا مطلب مهم لأنها اذا تهيئت الفرصة الآن قد لا تتهيأ لك غداً كما في أثر ابن عمر رضي الله عنه " لا تدري ماذا يكون اسمك غداً " يعني من الأحياء أم من الأموات ، فاغتنام الصدقة وقت تهيؤها للعبد أمر مهم ولا ينبغي أن يغفل عنها ، وهذا الحديث فيه هذا النوع من الحث على الصدقة بأن يغتنم الانسان وقتها وفرصة تهيؤها له ، لأنه قد يأتي عليه وقت لا تتهيأ له ،

بل بعض الناس يؤخر الصدقة ويكبر سنّه ثم يصيبه شيء من الخرف فيحجر أبناءه على ماله ويكون ماله موجود ويريد أن يتصدق فلا يتمكن لأنه حجر على ماله وهذه لها صور كثيرة ، فالحاصل أن الانسان ما ينبغي له أن لا يؤخر

وأيضاً عليه أن يحرص على أن يكون له نصيب يومي من الصدقة وفي الوقت نفسه يحتسب ما ينفقه على أهله من طعام أو شراب أو ملبس أو مركب يحتسب ذلك عند الله

قال [تصدقوا فيوشك الرجل يمشي بصدقته فيقول الذي أعطيها لو جئت بها بالأمس قبلتها]

لاحظ الفرق كم بين إمكان الصدقة وعدم الإمكان يوم واحد فهذا فيه حث على الصدقة وقت إمكانها لأنها اذا كانت ممكنة اليوم قد لا تكون ممكنة في الغد قد يعرض أسباب تحول بينك وبين الصدقة يعني من الأسباب تكون اليوم نفسك متشجعة على البذل – والنفس لها إقبال وإدبار – وفي الغد تكون شحيحة يتذكر الانسان المصالح والأولاد فيشح في المال ،

فالشاهد هناك عوارض كثيرة تجعل الانسان يؤجل ويسوّف فالمطلوب المبادرة واغتنام فرصة إمكانها قبل تعذُرها

قال [لو جئت بها بالأمس قبلتها وأما الآن فلا حاجة لي بها ، فلا يجد من يقبلها]

فالشاهد أن هذا الحديث فيه حث على فرصة اغتنام الصدقة قبل تعذر ذلك على العبد .

٤-[وروى عدي بن حاتم رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه ذكر النار فتعوذ منها وأشاح بوجهه ثلاث مرات ثم قال : " اتقوا النار ولو بشق تمرة فإن لم تجدوا فبكلمة طيبة " متفق عليه ،

قوله أشاح : أي جدّ وانكمش على الوصية باتقاء النار وقيل : حذر من ذلك والمشيح : الحذر، وقيل : الهارب ، وقيل أشاح : أقبل ، وقيل : قبض وجهه ، قال الحربي : أحسن ما قيل فيه : التنحية وهو موافق للإعراض .]

الشرح..

ثم أورد رحمه الله هذا الحديث عن عدي بن حاتم الطائي ، وحاتم الطائي والد عدي رضي الله عنه كان مضرب مثل ولا يزال مضرب مثل في البذل والكرم والإنفاق على الضيوف وكان يبذل وينفق في ذلك بذلاً عظيما لكن لم تكن نيته في ذلك صالحة ولم تكن لله خالصة

ولهذا جاء في حديث أن عدياً سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن هذا الذي كان يقدّمه والده من كرم وصدقات وبذل أينفعه ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : لا ، قال : ذاك أراد شيئاً فحصله " قال أهل العلم : أي الشهرة "كان يريد بهذه الصدقات والكرم والبذل الشهرة فحصّلها ،

فرق بين من ينفق الأموال الطائلة شهرة فلا يتجاوز نصيبه من هذا المال إلا سمعة تكون له في الدنيا وبين من ينفق ريال واحد أو ريالين أو تمرة أو تمرتين لا يبتغي بها إلا وجه الله فيرى بركتها العظيمة في الدنيا والآخرة ويجدها يوم القيامة مثل الجبل كما تقدم وذاك الذي أنفق الكثير الكثير لا يجد منه شيئاً يوم القيامة لأنه لم ينفقه لوجه الله ،

ومثله عبدالله بن جُدعان والحديث في صحيح مسلم وكان ينفق ويفك العاني ويبذل الكثير فسألت عائشة رضي الله عنها النبي صلى الله عليه وسلم ذكرت له أن من حاله كذا وكذا أينفعه ذلك قال صلى الله عليه وسلم : لا ، لأنه لم يقل يوماً قط اللهم اغفر لي خطيئتي يوم الدين " يعني لم يرد الأخرة والله يقول ﴿ ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا ﴾

من ينفق للدنيا والسمعة والشهرة ومدح الناس هذا كله لا ينفعه في الأخرة نعم قد يحصّل شهرة وصيتاً ومدحاً عند الناس ، لكن لا يجد شيئاً من ذلك في صالح عمله يوم القيامة لأنه لم ينفقه ابتغاء وجه الله تبارك وتعالى

قال [عن عدي بن حاتم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه ذكر النار فتعوذ منها – نعوذ بالله من النار– وأشاح بوجهه ثلاث مرات]

جاء في رواية في صحيح البخاري لهذا الحديث أن الصحابة قالوا حتى ظننا أنه ينظر إليها : أي كأنها أمامه ينظر إليها من إشاحته بوجهه عليه الصلاة والسلام

وذكر المؤلّف رحمه الله أقوالاً لأهل العلم في معنى أشاح وفي كتب اللغة هذه المعاني المذكورة التي ذكرها المؤلف رحمه الله

لكنه ختم بقول الحربي

قال : " أحسن ما قيل فيه : التنحية وهو موافق للإعراض "

وفي اللغة يقال : أشاح اذا نحّى الرجل وجهه : يعني أعرض بوجهه وصدّ بوجهه ، وهذا المعنى هو الأقرب لسياق الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم ذكر النار فتعوذ منها وأشاح بوجهه أي نحى وجهه عن الجهة التي كان ينظر إليها وأعرض عن تلك الجهة حتى قالوا الصحابة رضي الله عنهم حتى ظننا أنه ينظر إليها يعني في جهة معينة فأعرض عن تلك الجهة ،

ثم قال " اتقوا النار ولو بشق تمرة "

والله يقول ﴿ يأيها الذين امنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ﴾

وهذه النار أعاذنا الله منها مما تتقى به الصدقة ولو كان بتمرة أو بما يعادل التمرة ، لا يحقر المرء شيء من المعروف مما يتقى به النار ،

قال " اتقوا النار ولو بشق تمرة " يعني لا يتقالّ أحدكم شيئاً يتقي به النار من المعروف والخير والصدقات ولو شيئاً قليلاً لا يحتقره المرء بأن يقدمه بأن يكون وقاية له من النار والصدقة كما في الحديث " تطفئ غضب الرب جل وعلا " ،

قال " اتقوا النار ولو بشق تمرة " يعني ولو كان شيئاً قليلاً ثم أيضاً من لم يجد القليل له أيضاً ما يتقي به النار

قال صلى الله عليه وسلم " فإن لم تجدوا فبكلمة طيبة "

يعني إن لم تجدوا مالاً أو طعاماً أو شراباً أو لباساً فبكلمة طيبة والكلمة الطيبة يدخل تحتها الكلمة الطيبة للسائل الذي جاء يسأل وليس عند الانسان ما يعطيه مثل أن يقول أسأل الله أن يرزقك ويعينك على قضاء دينك يسمعه كلمة طيبة دعاءً طيباً

أو الكلمة الطيبة تتناول ما هو أعمّ من ذلك ، من لم يتيسر له مالاً ينفقه فالنفقة بالكلام ممكنة ؛ مثل ما قال صلى الله عليه وسلم " وأمر بالمعروف صدقة ونهي عن المنكر صدقة " والدلالة على الخير ومعاونة الناس ، الآن مثلا ترى شخصا أو زائر لم يهتدي إلى بيته بحكم أنه جديد على المنطقة فاذا وضح له الطريق وذهب معه هذه صدقة فباب التصدق بالكلمة الطيبة باب واسع جدا ، فالحاصل أنه لا يتقال من المعروف شيئاً .

٥- [وروى أبو هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال " ما يسرني أن لي أحداً ذهبا تأتي علي ثالثة وعندي منه دينار إلا ديناراً أرصده لدين علي " متفق عليه]

الشرح..

ثم أورد هذا الحديث في الحث على الصدقة والترغيب فيها

وقوله " ما يسرني أن لي أحداً ذهبا " أحد جبل معروف عظيم يقع شمال المدينة ، والحديث جاء بنحو هذا من حديث أبي ذر قال "كنت أمشي مع النبي صلى الله عليه وسلم في الحرّة فاستقبلنا جبل أحد – يعني صار جبل أحد أمامنا – فقال النبي صلى الله عليه وسلم وأبو ذر رضي الله عنه إلى جنبه يرى جبل أحد ، قال " ما يسرني أن لي مثل أحداً ذهبا "

قال " تأتي علي ثالثة وعندي منه دينار" هذا فيه السرعة في البذل وعدم التأخير

ثم قال " إلا ديناراً أرصده للدَين علي "

هذا يفيدنا الحث على المسارعة على سداد الدين وأن سداد الدين أولى من الصدقة ومن هذا أخذ العلماء أن من تيسر له مالا يحج به ويعتمر وعليه دين فسداد الدين أولى – هذه حقوق الناس – وينبغي على المرء أن يسارع في الخلاص منها وسدادها وجاء في المسند للإمام أحمد أن النبي صلى الله عليه وسلم " لا تخيفوا أنفسكم بعد أمنها قالوا وكيف ذلك يا رسول الله قال الدين "

الدين ليس بالهيّن ، ولهذا مسارعة الانسان لقضاء الدين وجمع المال لقضائه مقدم على الصدقة ولهذا قال صلى الله عليه وسلم " إلا ديناراً أرصده لدين عليّ "

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك، اللهم صلّ وسلم على عبدك ورسولك نبينا محمد و آله وصحبه.